التلون في الخطاب الشعري عند القاضي الفاضل

أ.د. ثائر سمير حسن الشمري أ.د. كمال عبد الفتاح حسن السامرائي

كلية التربية الاساسية/جامعة بابل كلية التربية – جامعة سامراء

Variation in the Poetic Discourse of Al-Qadhi Al-Fadhil

Prof. Thaer Samir Hassan Al-Shammari\ College of Basic Education / University of Babylon

Prof. Kamal Abdel Fattah Hassan Al-Samurai\ College of Education - University of Samarra

Variation in the Poetic discourse was mentioned before the Abbasid reign-Many poets have taken different aspect in their poems. Al-Qadhi Al-Fadhil is one of the poets who are characterized by variation in their poetic discourse a ccording to political and religiow changes or hypocrisy in that the poets are not toyal to the people they praise. thus, this study is concerned with the points of variation in the poems of Al-Qadhi Al-Fadhil.

Key words: Variation, Poetic discourse, Al-Qadhi Al-Fadhil.

الملخص:

إنّ موضوع التلون في الخطاب الشعري كان متداولاً قبل العصر العباسي، فوجد عند كثير من الشعراء متخذًا عدة جوانب في أشعارهم، وكان القاضي الفاضل واحداً من أولئك الشعراء الذين انمازوا بتلونهم في الخطاب الشعري، سواء على وفق المتغير السياسي أو المذهبي أو النفاق وعدم الوفاء والانقلاب على الممدوحين، لذا سنبحث في هذه الدراسة مواطن التلون في شعره.

الكلمات المفتاحية: التلون، الخطاب الشعري، القاضي الفاضل.

شاعت في الآونة الأخيرة بعض الدراسات التي تحاول أن تعكس بعض المفاهيم الحديثة على مضمون الشعر، لاسيما السياسية ؛ كالإقصاء والتحريض والدعاية السياسية، والترويج الاعلامي...، وقد طرحت موضوعات تُعد من باب الأدب أو النقد الثقافي، كالآخر ؛ وصراع الحضارات، والتعايش السلمي، وغيرها من المفاهيم الجديدة التي أراد الباحثون منها أن يعكسوا ذلك على الشعر ومضامينه.

إن موضوع التلون في الخطاب الشعري ومفهومه لم يكن من ضمن الموضوعات التي استحدثت في هذا العصر، بل كان متداولاً في العصور السابقة، ودلالة اللفظة عند علماء اللغة تقترب – بل تتوافق – مع دلالتها عند النقاد، إذ ذكر الأصفهاني في الأغاني عند حديثه عن بشار أنه: "**كان كثير التلون في ولائه، شديد الشغب والتعصب للعجم**"[1]، فقد عد أبو الفرج التلون عند بشار في موضوع واحد ؛ وهو الولاء، لما له علاقة بأصل الشاعر ولم يذكر التلون في جوانب أخرى، مما دفعنا للخوض في إجراءات المفهوم والبحث والتقصي عنه في دواوين شعراء العصر العباسي، ووجدنا هذه الظاهرة عند كثير من الشعراء متخذة عدة جوانب في اشعارهم، فمنهم من كان من أصول غير عربية، ومنهم من تذبذب في مواقفه السياسية، والدينية، والثقافية، وارتبط التلون بالصراع السياسي والمذهبي وبتغير المواقف[2]، وأضحى التلون سمة من سمات بعض الشعراء ممن لا يثبت على رأي ويدخل فهمه من ضمن المتغير السياسي والتكسب بالشعر.

ومن الشعراء الذين وجدنا التلون في خطابهم الشعري، القاضي الفاضل (عبد الرحيم بن علي البيساني)، وحاله حال الشعراء الاخرين الذين انمازوا بتلونهم في خطابهم الشعري، سواء أكانوا مدفوعين إلى التلون في خطابهم على وفق المتغير السياسي أو المذهبي أم كان دينهم النفاق وعدم الوفاء والانقلاب على الممدوحين.

(1) الأغاني: 139/3.

(2) ينظر: التلون في الخطاب الشعري في العصر العباسي الأول: 1.

وقبل الخوض في فضاءات التعريف لابد من تتبع المصطلح في الكتب اللغوية، ثم البحث عن دلالته الاصطلاحية، إذ إن البحث عن مصطلح ما في المعاجم يدرج في ضمن ما تعارف عليه النقاد والباحثون. بذلك تكون الدلالة اللغوية هي المؤسس للمصطلح حينما يغيب التعريف في الاصطلاح.

فالتلون لغة: " **تلون فلان: اختلفت أخلاقه**"[1]، وفصل ابن منظور ذلك بقوله: "**فلان متلون: إذا كان لا يثبت على خُلقٍ واحد**"[2].

وفي الاصطلاح: " **هو التذبذب واختلاف المواقف وتبدل الآراء وعدم الاستقرار على اتجاه أو سلوك سواء أكان سياسياً ام دينياً ام اجتماعياً**"[3].

ويصاب الرجل بالتلون لأنه يعد من النفاق وعدم الوضوح، اما الخطاب فهو: "**كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء أكان مكتوباً أو [كذا] ملفوظاً**"[4]، وبذلك يكون تلون الخطاب الشعري: كل كلام خضع للصياغة الشكلية ودخل في ضمن الشعر نظماً أو انشاداً، سواء أكان مكتوباً أم ملفوظاً وعبر عن اختلاف الرؤى والمواقف وعدم الثبات على مبدأ واحد من الشاعر، أي أنه يعبر عن سلوك الشاعر من خلال شعره الذي هو انعكاس لمبدأ الشاعر وديدنه في تعدد المواقف ويكون فهمه في ضمن السياق الثقافي والسياسي والاجتماعي[5].

ومن مظاهر التلون التي عرفها الشعر العربي موضوع انقلاب الشاعر على ممدوحه، وهي ظاهرة وجدناها كثيراً في شعرنا العربي لاسيما في العصور العباسية، وبخاصة عند شعراء التكسب بالشعر، مما أدى إلى أن يكون سبة على الشعر العربي كما عدها أحد الباحثين[6]، وإن كان التكسب بالشعر لم يكن وليد هذا العصر، وإنما رافق الشعر منذ الولادة.

وقد يكون التغير وانقلاب الموقف ناجماً عن جفاء الممدوح أو انقلاب الحال بالممدوح لاسيما إذا كان من ضمن الهرم الإداري ومن رجال السلطة، لذلك عمد الشعراء في تلونهم إلى طرق باب المدح لكسب ودّ هذا أو ذلك على الرغم من اختلاف المواقف والتباين في شخصيات الحكام وسرعة تغير الخطاب المدحي عند الشعراء.

والقاضي الفاضل من ضمن أولئك الشعراء الذين تغيروا في مواقفهم بتغير السلطة، وعبر بقصائده المدحية عن ذلك التغير مما يُعبر بصراحة عن تلون خطابه الشعري واختلافه وتغيره، فقد سار مع ركب أولئك الذين تزلفوا للسلطان ومدحوا الوزراء والقادة مع عدم قناعته بذلك، ولكن من أجل التكسب وقبول الرضا وحتى من الخوف على نفسه، وقد قال عنه أحد الباحثين المحدثين أنه ممن يأكلون على الموائد كلها[7]، إذ إنه كان يخدم الدولة الفاطمية ويمدح خلفاءها ويثني عليهم ويتقرب لوزرائهم، ثم نجده يغير في بوصلة مدحه ليوجهها إلى ممدوح جديد وحاكم آخر وهو صلاح الدين الأيوبي ويشيد به وبقيادته، فضلاً عن اغرائه له بالدولة الفاطمية والنيل منها، وهذا ما وجدناه في نصوصه الشعرية وسيرة الرجل التي دلت على ذلك.

والقاضي الفاضل هو: أبو علي عبد الرحيم بن علي البيساني العسقلاني[8]، وثَبُتَ أنه عسقلاني المولد وبيساني النشأة[9]، ولد عام (529هـ) وتوفي عام (569هـ)[10]، وعُرف القاضي الفاضل كاتباً أكثر منه شاعراً، وطارت شهرته في الآفاق بما عُرف عنه وعن اهتماماته النثرية حتى سُميت مدرسة في النثر العربي باسمه وهي (المدرسة الفاضلية).

(1) معجم مقاييس اللغة: (مادة لون).
(2) لسان العرب: (مادة لون).
(3) التلون في الخطاب الشعري:2.
(4) دليل الناقد الأدبي: 89.
(5) ينظر: التلون في الخطاب الشعري: 3-4.
(6) ينظر: التكسب بالشعر: 19-20.
(7) ينظر: دراسات في عصر الأيوبيين:11.
(8) ينظر: الخريدة (شعراء مصر): 5/1؛ ووفيات الأعيان: 158/2؛ والنجوم الزاهرة: 56/6؛ وشذرات الذهب: 322/4.
(9) ينظر: القاضي الفاضل شاعراً: 30.
(10) ينظر: مسالك الأبصار: 279/7؛ والمواعظ والاعتبار: 366/2؛ ووفيات الأعيان: 161/3؛ وحسن المحاضرة: 564/1.

وسيرة الرجل ونشأته تدل على أنه كان طموحاً منذ صباه، إذ أرسله أبوه إلى مصر لينال حظه من التعلم والمكانة لاسيما في دواوين الدولة، وولج دواوين الكتابة وتمرس في بعضها وتعرف على رجالاتها، ولقي المتصدرين لها وتقرب منهم، وقد عبر عن ذلك عندما لقي (ابن الخلال) وهو من كبار الكُتاب في ذلك العصر وكيفية اختباره وسؤاله عن بضاعته وما يحمله من معارف فأجاب القاضي الفاضل: "ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة" [1]، وكان ذلك على عهد الدولة الفاطمية التي كانت تحكم مصر وبعض بلاد الشام.

وطرق القاضي الفاضل أكثر الأغراض الشعرية ولكنه أكثر من المدح، وشعره المدحي يتوزع على الذين كان لهم الفضل عليه، وما أسبغوه من نعمة وفضل، وعاش في أكنافهم معززاً مكرماً ؛ وهم على الأكثر خلفاء، وسلاطين، ووزراء، ورجال من علّية القوم الذين كانت لهم صلة بهم من كُتاب وقواد وعلماء، ولم تكن قصائده المدحية لطلب المال فحسب، وإنما لطلب الجاه أيضاً، ولم يدخر وسعاً في توظيف الصور والمبالغات في مدائحه التي ازجاها إلى من خصهم بالمدح بما عُرف عنه من اهتمام بالبديع وولعه به.

ومن الذين سير لهم مدائحه الخليفة الفاطمي (الحافظ) ؛ الذي عاش أول حياته في كنفه، فأطلق العنان لخياله الخصب لانتزاع الصور الجميلة التي يستحقها ممدوحه، فهذه النعمة السابغة والأفعال الحسنة التي أنعم بها عليه من كرم وعطاء تُعد إحدى سجاياه ؛ فضلاً عن توظيف النسب الذي يصلهم بالإمام علي (عليه السلام) ليعطيه حلاوة وجمالاً واستذكاراً لآل الرسول (ﷺ)، ويعبر عن قصوره في هذا المقام لأنهم أكبر من مدحه، إذ قال:

نـــادى الرجـــالُ بـــه ونـــادى سَـــيفَهُ فـــي كـــربِهِمْ يـــاذا الفَقـــارِ ويـــا عَلِـــي

وكأنَّمـــــا كَرَّاتُـــــهُ كَرَّاتُـــــهُ رِدْءًا لِتأييـــــدِ النَّبِـــــيِّ المُرْسَـــــلِ

[.....]

وكَـــرِيمُ أنســـابِ الطِّعـــانِ فَلَـــم يَكُـــن ذا طَعْنـــةٍ فـــي مُـــدْبِرٍ مـــن مُقبِـــلِ

فـــأرى لِســـانَ السَّـــيفِ يُفْصِـــحُهُ إذا مـــا جِئْـــتَ مِـــنْ نَسْـــجِ الحَدِيـــدِ بمُشْـــكِلِ

أرَبِيعَنـــا قَبـــلَ الرَّبيـــعِ إليـــهِ لا للشَّـــهْرِ يُسْـــنَدُ عـــن رَبِيـــعِ الأَوَّلِ

وهِلَالَنـــا وهُـــوَ الهِـــلَالُ بِعَيْنِـــهِ لا يَسْـــتَقِرُّ كمـــا نَـــرَاهُ بِمَنْـــزِلِ[2]

ويدبج قصيدة أخرى في مدح الخليفة الفاطمي وقد أشبعها بالبديع وبثّ فيها مشاعره الجياشة، لِما يُكنّه للخليفة من حُب وإعجاب بفضائله، ويوضح في خطابه أنه منقطع لهم لا يوالي أحداً سواهم ولا يُحب أحداً غيرهم، لأنه فطم قلبه على الحب وقول الشعر في أحد سوى الخليفة الفاطمي، إذ قال:

تُـــرَى لِحَنِينـــي أو حَنِـــينِ الحَمَـــائِمِ جَـــرَتْ فَحَكَـــتْ دَمْعِـــي دُمُـــوعُ الغَمَـــائِمِ

وَهَـــلْ مِـــن دُمُـــوعٍ أو رُبُـــوعٍ تَرَحَّلُـــوا فَكُـــلٌّ أراهـــا دارِســـاتِ المَعَـــالِمِ

لقد ضَعُفَتْ رِيحُ الصَّبَا فَوَصَلْتُها فَمِنِّـــي لا مِنهـــا هُبُـــوبُ السَّـــمائِمِ

[.....]

(1) الوشي المرقوم: 9؛ والروضتين: 487/1.
(2) ديوانه:279/1-280.

تَـــأخَّرْتُ فـــي حَمْـــلِ السَّـــلَامِ عَلَـــيكُمُ لَـــدَيها لِمـــا حُمِّلـــتْ مـــن سَـــمَائِمِ

فَـــلاَ تَسْـــمَعُوا إلا حَـــدِيثاً لِنـــاظِرِي يُعـــادُ بألفـــاظِ الـــدُّمُوعِ السَّـــواجِمِ

فـــإنَّ فُـــؤادِي بَعْـــدَكُم قـــد فَطَمْتُـــهُ عـــن الشِّـــعْرِ إلا مِدْحَـــةً لابـــنِ فـــاطِمِ[1]

واعتزّ بانتسابه للدولة الفاطمية وخلعه للولاء للدولة العباسية، فأطلق صفة دولة الهدى على الدولة الفاطمية للدلالة على أحقيتها ومشروعيتها، وأن غيرها دولة الباطل، وكنى عن الدولة العباسية بالسواد – لأنها راية بني العباس التي اتخذوها في بداية الثورة على بني أمية – وهي تورية أيضاً عما يعنيه السواد من دلالة الظلم والجور، إذ قال:

نَفَينـــا سَـــوَادَ اللّيـــلِ عـــن دَولَـــةِ الهُـــدى فـــلا رايَـــةٌ سَـــوْدَا ولا أُمّـــةٌ سَـــوْدَا

وبـــين مُجـــازاةٍ ضـــربنا وجِزْيَـــةٍ فمِـــن طـــائعٍ أدَّى ومِـــن خـــالِعٍ أَوْدَى[2]

وفي نص آخر يمدح فيه الفاطميين ويبشرهم بأن مُلكهم سيتجاوز مصر إلى بقاعٍ أخرى، فضلاً عن إشادته بنسبهم وانتمائهم إلى الرسول الكريم (ﷺ)، ويُشيد بثغور مصر وأنها مشرقة بحكمهم على خلاف الثغور الأخرى التي هي عابسة ومظلمة، فقال:

لَكُـــم فـــي زَبُـــورِ اللهِ يـــا مُبْلِغِـــي الِّـــذكْرِ وراثَـــةُ هـــذِي الأرضِ والخَلْـــقِ والأَمْـــرِ

فَـــلاَ تَحْسَـــبُوا مِصْـــراً تُخَـــصُّ بمُلْكِكُـــمْ فَـــلاَ مِصْـــرَ إلاّ سَـــوْفَ يَلْجَـــا إلـــى مِصْـــرِ

وإنّ ثغُـــوراً فـــي يَـــدَي غَيْـــرِ عَامِـــلٍ لِمِصْـــرِكَ أمْسَـــتْ غَيْـــرَ باسِـــمَةِ الثَّغْـــرِ[3]

ويضم الديوان عدة نصوص يمدح بها الفاطميين ويشيد بملكهم ويُعلي من نسبهم ويثني على عدالتهم وكرمهم وسماحتهم وحسن سياستهم وصواب حكمتهم ويكثر من الدعاء لهم[4].

ولم يقتصر في مدحه – كما ذكرنا آنفاً – على الخلفاء من الفاطميين، وإنما أرسل مديحه إلى وزراء هذه الدولة لاسيما صالح بن رزيك وشجاع بن شاور، وتغنى بصفاتهم وأثنى على حُسن تدبيرهم، ولكن الصراع الذي كان يدور بين أولئك الوزراء دفع بالقاضي الفاضل إلى أن يتلون في مدحه لهم، وأول وزير مدحه هو العادل ابن رزيك حينما تولى الوزارة عام (548هـ) [5]، إذ استخدم القاضي الفاضل في ديوان الجيش، فقال مادحاً:

إذا مـــا الغَـــزالُ سَـــرى زَائِـــرَا فـــلا تَـــأمَنِ الأسَـــدَ الزَّائِـــرَا

ولكِـــنْ سَـــلِ اللَّيـــلَ سَـــتْراً عَلَيْـــكَ وإنْ كُنْـــتَ تَأْمَنُـــه كـــافِرَا

[....]

لَقَـــدَ نَصَـــرَ اللهُ ديـــن الهُـــدَى بـــأنْ نَصَـــرَ المَلِـــكَ الناصِـــرا

فَلَسْـــنا نَخـــافُ علـــى غابِـــهِ إذا كـــان فـــي غابِـــهِ خـــادِرا

(1) م.ن : 1/301-302.
(2) م.ن: 1/196.
(3) م.ن : 1/220.
(4) ينظر: م.ن : 1/200، 277.
(5) ينظر: الروضتين : 1/322 ؛ والمواعظ والاعتبار: 2/336.

[....]

وَلِـــــي حاسِـــــدٌ أنـــــتَ أربَحْتَـــــهُ وأنـــــــتَ تُصَـــــــيِّرُهُ خاسِـــــــرا

[....]

ومـــــا أتّقِـــــي أنّ زَيْفـــــاً يَمُـــــرُّ بِنَقْـــــــدِكَ إلاَّ بَـــــــدَا ظـــــــاهِرا[1]

ويلاحظ " **في شعره تكرار لفظة (ناصر) وهو لقب قد لقب به أكثر من واحد غير صلاح الدين، كان العادل بن رزيك والخليفة الفاطمي – وللقاضي مدائح فيهما– فمَن المراد بهذا اللقب من هؤلاء الثلاثة ؟ ويبدو أن ليس هناك قرينة أو قرائن في بعض القصائد التي جاء فيها هذا اللقب على أن المراد به أحدهم** " [2]، وهذا الأمر جعلنا في حيرة من أمرنا حينما نقرأ تلك القصائد، لاسيما أن خطابه المدحي يكاد يكون متشابها في بنائه ومضمونه، فلا نعلم إلى أين وجهت تلك القصائد ولأي ممدوح من أولئك الثلاثة ؟ ولكن يمكن عدّها بجميعهم من دون أن نقع في خطأ التوصيف، وهذا الأمر يمكن أن نعده من ضمن التلون في خطابه المدحي لأن جله هو الإقرار بالشكر والعرفان لمن يستحقه وممن كانت له أيادٍ بيضاء عليه ونعمة، فهو يكثر في شكر ممدوحيه وممتن منهم[3]، على أن محقق الديوان قد وضح في بعض شروحاته وارجاع بعض القصائد إلى بعض الممدوحين ممن يُعرف بالناصر، لاسيما صالح بن رزيك وإن كانت لا تختلف عن سابقاتها في طرق معاني الممدوح المتداولة والتي عرفناها عند القاضي الفاضل[4].

ونجد بعض النصوص التي يمدح بها شجاع بن شاور الذي كان نداً للعادل ابن رزيك، ولكن القاضي الفاضل لا يهمه من كان الممدوح، والذي يهمه هو من كان في الوزارة وبيده السلطة، فهذا هو الذي يقصده بمدحه من دون النظر إلى شخص الممدوح وإنما إلى عمله. وصبغة المدح كما ذكرنا آنفاً لا تختلف عما سبق، فهو يشيد ويثني ويمدح. إذ قال:

يـــا شُـــجاعُ بـــنَ شَـــاوِرِ بـــنِ مُجِيـــرِ يـــــا كَبِيـــــراً يَنْمِيـــــه كُـــــلُّ كَبِيـــــرِ

[....]

تُشْـــرِقُ الأرضُ مِـــن وُجُـــوهِكُمُ الغُـــــ ـــــرّ بِسُـــرْجِ مِـــن قَبـــلِ سُـــرْجِ النُّـــورِ

بَشَّـــــــرَ اللهُ آدَمـــــــاً بِـــــــأبِيكُمْ فابْتَـــــدَا البِشْـــــرُ وَقْـــــتَ ذاكَ البَشِـــــيرِ

جـــاءَ طَبْعـــاً لِلخَيـــرِ يَغْلِـــبُ مـــا فـــي كُـــلِّ طَبْـــعٍ مِـــن كامِنـــاتِ الشُّـــرُورِ

[....]

سَـــاعَةً جـــاءَ مِـــن أبيـــكَ لـــه ابـــنٌ كـــــان مَبْـــــدا التَّهْلِيـــــلِ والتَّكْبِيـــــرِ

يَكْمُـــنُ المـــاءُ فـــي السَّـــحَابِ حَيـــاءً مِـــنْ نَـــدَاهُم ويَخْتَبِـــي فـــي البِيـــرِ[5]

(1) ديوانه: 212/1، 215، 216-217.
(2) القاضي الفاضل شاعراً: 47.
(3) ينظر: ديوانه: 156/1، 239.
(4) ينظر: م.ن : 156/1.
(5) م.ن: 239/1.

ويبدو أن القاضي الفاضل لم يألُ جهداً في الثناء على شجاع بن شاور، فقد أكثر من مدحه بعدة قصائد؛ منها هذه القصيدة التي يشيد فيها بشجاعته ويكثر من تعداد محاسنه التي بالغ في بعضها، وهذا ديدن الشعراء دائماً فإنهم يبالغون في إسباغ الصفات على ممدوحيهم وإن كان ذلك مما يقبل في الشعر، فقال مادحاً وواصفاً لممدوحه ومثقلاً نصه بالجوانب البديعية التي عُرف بها:

أَمَـــا ومِنـــكَ علـــى أعـــدائِكَ الطَّلَـــبُ فـــإنَّ أعْـــدَى عَـــدُوٍ عِنـــدَنا الهَـــرَبُ

أنـــتَ الحيـــاةُ التـــي مـــا بَعْـــدَها رَغَـــبٌ أو الحِمـــامُ الـــذِي مـــا قَبلَـــهُ رَهَـــبُ

[....]

لَو أضمَرَتْ سُحُبُ الأُفقِ النِّفاقَ لَكمُ لَقاتَلَتْهـــا إلـــى أنْ تَنْجَلِـــي الشُّـــهُبُ

[....]

يـــا شَـــمْسَ دَهْـــرِي ولَكِـــنْ حَبْـــلُ آمِلِـــهِ مـــا كـــان مِثْـــلَ حِبـــالِ الشَّـــمْسِ يَنْقَضِـــبُ

[....]

وكـــم ضَـــرَبْتَ بِســـيفٍ مـــا لَـــهُ قَـــرَبٌ كمـــا زَحَفْـــتَ بِجَـــيشٍ مـــا لَـــهُ لَجَـــبُ

حَتّـــى أَطَـــرْتَ رِقابـــاً مـــا لَهُـــنَّ دَمٌ وحُـــزْتَ نَهْـــبَ نُفُـــوسٍ مـــا لَهـــا سَـــلَبُ

أُغْمِـــدْ سُـــيُوفَكَ فالـــدُّنيا تُعـــاقِبُهُمْ وَنَـــمْ فـــإنّ اللَيـــالي عَنْـــكَ تَعْتَقِـــبُ

[....]

فاسْـــلَمْ علـــى رَغْـــمِ أيّـــامِ الزَّمـــانِ كمـــا تَهْـــوَى وتَبْغِـــي ونَفْنَـــى نَحْـــنُ والحِقَـــبُ

ولا تَمِيـــلُ علـــى مَلـــكٍ يَمِيـــلُ علـــى جَوانِـــب الجُـــود مِنـــهُ العِلـــمُ والأدَبُ[1]

ويدخل نفسه في الصراع الذي دار بين وزراء الدولة الفاطمية في آخر عهدها، لاسيما بين ضرغام وشاور، وهذا الصراع الذي جعل شاور يستنجد بنور الدين زنكي لمناصرته على خصمه، فأرسل له أسد الدين شيركوه– عم صلاح الدين الأيوبي–، وبعد أن نصره طالبه بالأموال التي وعدها لنور زنكي، ولكنه أخلف ذلك مما دفع بشاور إلى أن يستنجد بالإفرنج، ولكن انتصر أسد الدين شيركوه وعاد الفرنج إلى موطنهم في بلاد الشام وذلك عام (559هـ) [2]، وهنا يبين سياسة شاور ويشيد به وأنه نصر آل النبي (ﷺ) ويقصد الدولة الفاطمية، حتى إن ملك الفرنج انتصر لهم وعدّها آية من الآيات النبوية التي جعلت الأعداء ينتصرون لهم، إذ قال:

صَحا الدَّهرُ لَكنْ بَعدَما طَالَ سُكْرُهُ ومـــا كـــانَ إلّا مِـــن دَمِ البَغْـــيِ خَمْـــرُهُ

[....]

يَجُـــوزُ علـــى الهَامـــاتِ عَـــادِلُ سَـــيفِهِ ويَجْـــرِي علـــى أهْـــلِ الأوامـــرِ أمْـــرُهُ

(1)م.ن : 146/1، 147، 153.
(2) ينظر: الكامل في التاريخ: 124/11-134.

لقــد قُمْــتَ فــي نَصْــرِ النَّبــيِّ وآلِــهِ مَقامــاً علــى الــرَّحمنِ قــد حَــقَّ أجْــرُهُ

سَــرَى مَلِــكُ الإفْــرَنْجِ يَنْصُــرُ جَمْعَهُــمْ فمــا ضَــرَّهُمْ فــي نُصْــرَةِ الحَــقِّ كُفْــرُهُ

ومـــــا هِـــــيَ إلّا آيَـــــةٌ نَبَوِيَّـــــةٌ أقامَــتْ لَهُــمْ بــالنَّفْعِ مِــنْ خِيــف ضُــرُّهُ

وعــادَتُهُمْ مِــن قَبْــلُ آيَــةُ جَــدِّهِمْ فَيَــنْصُرُهُمْ مَــنْ لَا يُؤَمَّــلُ نَصْــرُهُ[1]

ومن تلونه في خطابه الشعري الذي بان واضحاً حينما رثى آل رزيك عند وقوع النكبة بهم وخروجهم من دست الوزارة، فقد أعلن ثورته على القاتل وهم آل شاور[2]، وقد بدأها بالغزل وتمنى لو انه قادر على أن ينصرهم، ولكن؟ قال:

أسْــتَودِعُ اللهَ فــي أظعــانِهِمْ قَمَــراً إليــه لــو ضَــلّتِ الأقمــارُ يُحْــتَكَمُ

عِنــدي سُــهادٌ وعِنــدَ الهــاجِرِينَ كَــرًى فاللّيــلُ مُشْــتَرَكٌ بَينِــي وبَيْــنَهُمُ

بــأيِّ وَجْــهٍ يَرانِــي النّــاسُ بَعْــدَهُمُ حَيّــاً ويــا أَسَــفا إنْ قُلْــتُ: بَعْــدَهُمُ

[....]

وكــان حَقُّكُــمُ لَــوْ كــانَ لِــي قِبَــلٌ أنْ يَنْصُــرَ السَّيْفَ لا أنْ يَنْصُرَ القَلَمُ[3]

ومن هذا النصح يتضح لنا أنه كان يهتم بمن هو في المنصب ويمدح من له الجاه والقوة، ولكن كما قلنا سلفاً أنه قد مدح آل شاور بعد أن كان يمدح مَن سبقهم ولم يكتف بذلك، وإنما حاول ان ينتقم منهم ولكنه سرعان ما مدحهم وأثنى عليهم بعد تغير الحال. وتغيرت الأحوال في مصر وافلت دولة الفاطميين وتولى صلاح الدين الأيوبي الحكم بعد عمه شيركوه، وأعاد الخطبة للعباسيين وأصبح سلطان مصر يدين بولائه إلى نور الدين زنكي في بلاد الشام وتحت راية الدولة العباسية في بغداد وذلك عام (569هـ)[4].

ونراه يتشفى بأفول نجم الفاطميين ويعبر عن ذلك ببيتين من الشعر، فيصف فيهما قصر الخلفاء بالقاهرة المغزية وقد خلت من خلفائها وحكامها، إذ قال:

صــاحِبُ هــذا القَصْــرِ كَــم قُبِّلَــتْ ســاحَتُهُ أمْــسِ وكَــم عُظِّمــا

وقُــدْرَةُ القــادِرِ فــي هَدْمِــهِ أعْظَــمُ مِنهــا فــي بِنــاءِ السَّــما[5]

على الرغم من أنه قد قال في آخر الخلفاء الفاطميين وهو العاضد مديحاً وإن لم يتبق في الديوان إلا بيت التخلص من النسيب، ولكن له دلالته في أنه قد فطم نفسه عن قول الشعر في أحدٍ إلا للفاطميين [6].

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي أصبحت مكانته لا تعلوها مكانة سوى صلاح الدين نفسه، واصبح مقرباً منه ويستشيره في صغائر الأمور وكبائرها ويطلب الرأي منه [7].

ومدح صلاح الدين ببعض القصائد وهي مثبوتة في صفحات الديوان منها قوله:

(1) ديوانه: 1/200-201.
(2) ينظر: المواعظ والاعتبار: 2/266؛ والنكت العصرية: 79.
(3) ديوانه: 2/405-406.
(4) اعتمد الباحثان في هذا الموضوع ما جاء في مفرج الكروب والروضتين.
(5) ديوانه: 2/406.
(6) ينظر: م.ن :1/301-302.
(7) ينظر: وفيات الأعيان: 7/206.

النَّصْـــرُ كـــان مُوَاعِـــداً للنَّاصِـــرِ مـــا كـــان يَحْضُـــرُ وهْـــوَ لـــيسَ بحاضِـــرِ

والنَّصْـــرُ قـــال: إذا أتـــانِي نَجْـــدَةً فَبِنَفْسِـــهِ يَكْفِـــي بِغَيـــرِ عَســـاكِرِ[1]

وقال أيضاً:

سَـــجَدَتْ لِيُوسُـــفَ فـــي انتِبـــا هِ مِثْـــلَ يُوسُـــفَ فـــي مَنَـــامِ

[....]

يـــا ناصِـــحِي لَـــمْ تَـــرْعَ إنْ فَنَّـــدَتْنِي حَـــقَّ الـــذِّمامِ

مُلْـــكُ المَنـــامِ لِنـــاظِرِي أمْـــرٌ سِـــوَى مُلْـــكِ الأنـــامِ[2]

وأكثَرَ مِن مَدْحِ صلاح الدين وأثنى عليه، كما مدح أبناء صلاح الدين وأخوته[3]، ومن خلال قراءة الأشعار التي ازجاها إلى ممدوحيه وتعدد أولئك جعلنا نعتقد أن القاضي الفاضل كان متلوناً في خطابه المدحي، فهو لم يقصر مدحه على شخصٍ واحد، وتنقل بين الممدوحين، وانقلب على بعضهم، وطرق باب من هجاهم أولاً أو نال منهم، فهو تارة يتبع الدولة الفاطمية ويشيد بها وبملكها وينال من الدولة العباسية، وتارة أخرى يمدح هذا الوزير أو ذاك، ويهجو هذا ثم يعاود مدحه ويتشفى بزوال من مدحهم وانحسار دولتهم. ويعدّ ذلك من النفاق ولا يمكن أن يكون مقبولاً منه لاسيما في تغير ولائه مع تغير المناصب، ولكن هذا هو ديدن الشاعر، وإن كان حاله كحال الآخرين من الشعراء ممن يتنقلون على الموائد كلها من أجل التكسب ونيل الجاه، مع أنهم لا يؤمنون بما يقولون لذلك عُدَّ القاضي الفاضل في ضمن أولئك المتلونين.

المصادر والمراجع

- الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- التكسب بالشعر، د. جلال الخياط، بغداد، 1986م.
- التلون في الخطاب الشعري في العصر العباسي الأول، د. كمال عبد الفتاح حسن السامرائي، مجلة سر من رأى، مج9، العدد34.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، 1968م.
- خريدة القصر وجريدة أهل العصر، العماد الأصفهاني، قسم شعراء مصر، تحقيق: أحمد أمين وشوقي ضيف، لجنة التأليف والنشر، د.ت.
- دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، د. محمد كامل حسين، دار الفكر العربي، مصر، 1969م.
- دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي، د. سعيد البازغي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2000.
- ديوان القاضي الفاضل، تحقيق: د. أحمد بدوي، ط1، دار المعرفة، مصر، 1961م.
- الروضتين في أخبار الدولتين، للمقدسي، مطبعة وادي النيل، مصر، 1287هـ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- القاضي الفاضل شاعراً، د. كمال عبد الفتاح حسن السامرائي، دار تموز، سوريا، 2012م.
- الكامل في التاريخ، لابن الجزري، دار صادر، بيروت، 1966م.

(1) ديوانه: 242/1.
(2) م.ن: 285/1، 288.
(3) ينظر: م.ن : 162/1-163، 189-192، 241، 244، 256، 300-301.

- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري، تحقيق: أحمد زكي، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1924م.
- معجم مقاييس اللغة، للأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- مفرج الكروب في أخبار ابن أيوب، محمد بن سالم، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953م.
- المواعظ والاعتبار، خطط المقريزي، مطبعة بولاق بمصر، مكتبة المثنى ببغداد، 1970م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري الاتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، د.ت.
- النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، عمارة اليمني، تحقيق: هرتويج، طبع في مدينة شالون، مطبعة مرسو، 1897م، اعادته مطبعة المثنى، بغداد.
- الوشي المرقوم، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1989م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977م.